قصة قصيرة

امرأة من هناك

أحمد المزاري
- مصر -

أحست بهم .. فالتفتت .. كانوا يريدون مباغتتها ، ولكن خاب سعيهم ، فضحهم دبيب أحذيتهم الثقيلة فوق الرمال والحصى . تطلعت إليهم ، راعها ما انطبع على ملامحهم من قسوة ، فأوجست خيفة ، ثم عادت فتماسكت ، لوحت في وجوههم المتبلدة بعصاها الخشبية المكسورة ، علهم يرتدعون ، لكنهم لم يفعلوا !

السلاح البدائي لا يخيفهم ، ضعفها الظاهر يغريهم ، يحثهم على فعل شيء ما ..

تقدموا تجاهها ، تأخرت .. كادت أيديهم الملوثة تصل إليها ، تمسك بأي جزء من جسدها .. عندها لم تجد بداً من الفرار ، فرت .. دارت على عقبيها ، وجرت قدر ما يسعفها ضعفها وهزالها ، وشهور المعاناة والعذاب ، التي تحملها - مع السنين فوق كاهلها النحيل ، اطمأنت أخيرا بعد أن قطعت شوطاً طويلاً ، يباعد بينها وبينهم ويحميها ربما إلى حين من بطشهم ووحشيتهم .

توقفت ، لوت عنقها وهي تكابد لاسترداد بعض ما ضاع من أنفاسها ، ترامى إلى سمعها مزاحهم ، وضحكهم الفاجر ، وهم يتقافزون على جنبات الطريق الذي يؤدي إلى معسكرهم القابع هناك ، خلف التلال الرملية ..

كان أهل قريتها ، ومن تبقى من ذويها قد هاجروا ، تركوها وهربوا من ويلات حرب الإبادة التي فرضت عليهم .. خلفوها .. بعد أن رفضت بإصرار وعناد أن تمضي معهم إلى مكان غريب قد ينكرها ، يرفض أن تزرع فيه بعض ما يمكن أن يشدها إليه فيما بعد من ذكريات ، تستبدل بها ذكريات الأمس البعيد والقريب في هذا المكان الحبيب ، الذي كان شاهدا على أحلى ليالي عمرها، ويحفظ لها تحت ترابه جزءا من تجربة أليمة مضت منذ شهور ، ومكاناً مجاوراً ينتظر منذ زمن يطول ويقصر ساعة الفرّ التي ما زالت تدور بين جوانحها .

مكان قفر وقبر وأطلال قرية ، أتى

عليها الحريق ، وشقشقة عصفور ضاع منه الطريق ، ونعيب بومة مهمومة بقوت اليوم الذي لا يجيء ، وبقايا امرأة يشعلها بين التراب شعاع رجل قطع ملايين الأميال ، لكي يلتقي بها في ومضة خاطفة ، ينعكس أثرها على بقايا ستارة تتعلق ببقايا نافذة خلفتها قنابل المدافع .. واقفة بين الخرائب تفتحها الريح أو تغلقها على صورة طفل باسم .. مازالت تتشبث بمسمسار صدىء، غاب أغلبه بين بعض أحجار بقايا جدار ، كان يوما ما جزءاً من غرفة جميلة ، في بيت دافىء كانت تسكنه أسرة سعيدة .

التاريخ المحفور بشكل بدائي على شاهد القبر ، يدل على قرب عهد بالرحيل ، واستسلام حديث لتجربة النوم تحت الثرى ، لكن الدماء التي تناثرت وجفت هنا وهناك تفصح عن بعض تفاصيل جريمة وحشية ، ضاع معها القصاص أو الدية ، بين مذابح الأعداء ونيران الحلفاء التي تخطىء الهدف أحياناً ، فتقتل الأبرياء!!

كل هذا يدور تحت سمع بقية البشر وبصرهم ، الذين يرقبون .. يحللون .. يشجبون .. يستنكرون ويرفضون ، يتمتمون بشفاههم حزناً وأسى ، كأنّ الأمر لا يعنيهم .

كانت تبحث بين الفضلات
عن شيء ما تتبلغ به ،
وكان يشاركها البحث
– ولكن لنفسه –
كلب ضال ، يعاني
مثلها عضة
الجوع .. يقترب
منها إذا سمع
خشخشة بين
يديها ، أو يمضي
بعيداً عنها ، حين
يرى أمارات
الخيبة على
وجهها الذي

مازالت تبدو على قسماته آثار نعمة .

****

مصور تلفزيوني يدعي الصدق .. يمعن في إبراز الواقع المؤلم بلا « رتوش »!

نلتقي دائما على العشاء .. يحسدني على المائدة العامرة .. تدور عيناه الزائغتان ، على أطايب الطعام ، يسلط عليها عدسة « الكاميرا » الحديثة ، التي يحملها فوق كتفه ، أحاول أن أثير غيظه،أمد شوكتي الفضية إلى قطعة كبيرة من اللحم المحمر ، يبتسم لي من خلال الشاشة الصغيرة ، ابتسامة الزاهد في مأدبتي .. لا أصدقه !!.

بصبص الكلب بذنبه .. كانت قطعة اللحم الكبيرة في طريقها إلى فمي ، وكانت مخالب العجوز أسرع إلى قطعة الخبز اليابسة من أنيابه .

مصور وقح يريد أن يفسد علي متعتي ، يفقدني شهيتي ، ولكن هيهات .. نصفها الآن بين أسناني ، ونصفها الآخر بين براثن الشوكة الفضية .. كشر الكلب عن أنيابه ، زمجر غاضباً ، زجرته بالعصا الخشبية المكسورة .. وقف بعيداً .. ذيله بين رجليه .. مضى إلى حيث يجرب حظه في جانب آخر من كومة الفضلات .. لم يعثر على شيء.

توقفت أسناني – أثناء ذلك – عن العمل .. لم أعد أستسيغ طعم ما أمضغ ، أما هي فبرقت عيناها الكليلتان بريق الظفر ، ألقت بالعصا المكسورة جانباً ، وجلست القرفصاء تحدق في غنيمتها ، تقلبها بين أصابعها ، تنفض عنها التراب وتزيل ما خالطها من

قاذورات ، وأخيراً ألقتها داخل هوة مظلمة ، تآكلت أحجارها عبر السنين وويلات الحرب ، لكنها ما زالت قادرة على الطحن .

****

مصور وقح .. نلتقي دائماً على العشاء ونشرة الأخبار ، لا يمكنني تغيير المواعيد أو التضحية بأي منهما في سبيل الآخر .

نصف قطعة اللحم الكبيرة في فمي ، صار له طعم قطعة الخبز الجاف التي كانت تلوكها العجوز بين بقايا أسنانها،ولكن بتلذذ. نصف قطعة اللحم الآخر ، مازال عالقاً بين أسنان الشوكة الفضية.

خطرت لي خاطرة .. نهضت من مكاني ، دنوت من الشاشة الصغيرة .. لاحت على وجه المصور الوقح علامات دهشة ، لم أعره التفاتاً .. همست للعجوز .. التفتت تجاهي مذعورة ، بعد أن توقفت عن المضغ ، أبصرتني فاطمأنت .. أشرت لها كي تأتيني .. ترددت ثم نهضت من مكانها .. خطت بضع خطوات آتية نحوي ، ثم وقفت غير بعيد عني .. لوحّت لها بقطعة اللحم المحمر ، لم أنتبه إلى دنو الكلب أيضاً ، كان كل اهتمامي منصباً على إغرائها بالطعام الشهي ، لكن !! ماذا أصابها ؟ ما الذي يمنعها من الاقتراب أكثر من ذلك ؟ هيا يا امرأة .. ليس هذا وقت الخجل والتردد.

المصور الوقح لم يفوّت الفرصة ، كانت عدسة «الكاميرا» موزّعة بيني وبينها ، وكان الكلب خارج الإطار.

لوّحت لها من جديد بقطعة اللحم المحمّر ، هزت رأسها كالموافقة ، ثم تحرّكت ببطء نحوي .. يبدو أنها حسمت أمرها أخيراً لصالحي .. تشاغلت عنها بعد الاطمئنان إلى النتيجة ، بالنظر إلى المصور الوقح .. كان ظل ابتسامة واهية يتنامى بوضوح على قسماته !! يقلقني بتغير طعم النجاح الذي كنت أتهيأ لتذوقه !!

توزّعت نظراتي بينه وبينها ، ل
أشعر باقتراب الكلب ، الذي كان يوز
نظراته هو الآخر بيني وبينها ، يترق
الفرصة السانحة ، ولكن هيهات ، فالفو
للعجوز.

تحركت شفتاها قليلاً ، وهي تواجهن
.. تنظر في عيني ، لعلها تتخير الأ
بعضاً ممّا ازدحم به صدرها ، من كلما
الشكر وعبارات الامتنان.

مددت يدي إليها ، بتواضع مصطنع
وعينين شبه مغمضتين ، وابتسام
مشجّعة ، أحثها على التقاط اللحم المحم
أولاً ، قبل أن ينثال من شفتيها وابل
الثناء والعرفان.

كانت مشاعر شتى تنتابني في تلك
اللحظة التاريخية .. سوف أختزن كل م
يحدث الآن ، كي أحدث به أبنائي حين
يكبرون ، وأحفادي عندما يقبلون من
ظهر الغيب.

سوف أجعل من تلك اللحظة ذكرى
خالدة ، لا يضيرها .. أو يضرها .. تقاد
الزمان!!

سوف أسمي أوّل وليد يأتيني بعدها
«مجدي» وإن كانت أنثى ففي انتظارها
«أمجاد».

لكنَّ اللحظة طالت ، وزادت وطأ
التواضع المصطنع على أعصابي .. رفعت
إليها وجهي متسائلاً : ولكن .. كان
بصاقها أسرع إلى عيني من علام
الاستفهام ، وكانت لعناتها أسبق إلى
أذني من يدي إلى مفتاح الجهاز!

كانت عيناي اللتان يغطيهما اللعاب
الممزوج بفتات الخبز تحاولان الهروب
من عيني المصوِّر الوقح الذي كان - منذ
البداية - واثقاً من الظفر ..

أخيراً تمكنت من الهرب .. ضغطت
على المفتاح بشدة .. ولكن .. كانت أنياب
الكلب أسبق إلى قطع اللحم المحمَّر ..

مازلت أشعر حتى الآن بلزوجة لعابه
فوق أطراف أصابعي ، حين كان يسحب
غنيمته - بعد انطفاء الجهاز - ويختفي
بها خلف الشاشة الصغيرة المظلمة..